المغرب في القرن التاسع عشر من خلال رحلة المهندس الإنجليزي جيمس كريك

د. عادل بن محمد جاهل

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ابن زهر

المغرب

ملخص:

تسعى هذه الورقة، إلى تسليط الضوء على جانب من الرِحلات الاستكشافية الإنجليزية إلى بلاد المغرب الأقصى، من خلال نموذج رحلة المهندس والمستكشف جيمس كريگ، وتحديدا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وتشتمل هذه الورقة، على مجموعة من المباحث، حاولنا من خلالها دراسة الصور والانطباعات، التي خلّفها المهندس والمستكشف المذكور حول المجال والإنسان المغربي.

كلمات مفتاحية: المغرب الأقصى، القرن التاسع عشر، الرِحلات الإنجليزية، الصورولوجيا

Abstract:

This paper seeks to highlight part of the English expeditions to Morocco, through the model of the journey of the engineer and explorer James Craig, specifically in the second half of the nineteenth century, this paper includes a series of Topics; through which we tried to study the images and impressions left by the said explorer about the Morocco.

Keywords: Morocco; 19th century; English expeditions; Imagology; James Craig.

مقدمة:

يظهر أن أغلب الجوالين والمستكشفين والعسكريين الإنجليز، الذين جابوا مجاهل بلاد المغرب، على الأقل منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، كانت المغامرة، وارتياد المجهول، واكتشاف العجيب والغريب، والتنقيب عن الطريف والمدهش،والخروج على المألوف، والبحث عن الثراء السريع، والرغبة في الحصول على جائزة خاصة، من الغايات الرئيسة التي دفعتهم إلى التنقل إلى عين المكان، متجشمين عناء السفر في البر والبحر، ومخاطرين بأرواحهم وأجسادهم، أملا منهم في تحقيق بعض المكاسب المادية والمعنوية والرمزية. وعلى هذا الأساس، وانطلاقا من تلك الدواعي، وصل إلى بلاد المغرب، الذي كان يكتسي في مخيّلة الأوروبيين بشكل عام، طابعا غرائبيا، جمهرة كبيرة من المغامرين والمدنيين الإنجليز، الذين ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم، ومنهم أيضا، المستكشفين والرحالين المحترفين، الذين تعوّدوا على الرحلة، وركوب الأمواج، ومنهم رجال الدين، الذين رغبوا في القيام بنشر رسالة المسيح، وتعاليم الإنجيل، ومنهم رجال العلم، حملة الريشة والقلم، الذين استهوتهم الأبحاث عن الغريب في الطبيعة والإنسان. ونجد من بين هؤلاء المستكشفين، أيضا، الضباط العسكريين، الذين عملوا على إعداد معرفة جغرافية، ورصد أحوال المنطقة والساكنة، وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات والبيانات، مهما بدت صغيرة وتافهة، تمهيدا لغزو قد يأتي لا محالة، ومنهم المستكشف بالصدفة، الذي وصل إلى المنطقة، بكيفية أو بأخرى، فاستهوته مجاهل بلاد المغرب، بلاد "العجائب"، و"الغرائب"، و"الخوارق"، و"الإثارة"، فحرّر على إثرها، ارتسامات وخواطر وانطباعات، مرتبطة بالمجال والإنسان المغربي.

علاوة على ما تقدّم، نجد أن أغلب هؤلاء الجوالين والمستكشفين والعسكريين الإنجليز، قبل أن تطأ أقدامهم "الإيالة الشريفة"، كوّنوا خلفية تاريخية، وجغرافية، ودينية، وحضارية، أصيلة وعميقة؛ حيث درسوا الثقافة المغربية بأبعادها المختلفة، بل أكثر من هذا، تعلموا اللهجات المحلية، والعلوم الإسلامية، وعادات السكان المحليين؛ وذلك كله من أجل تسهيل مأموريتهم والنجاح في مهمتهم. وانطلاقا من ذلك، تمكّن هؤلاء الجوالين والمستكشفين والعسكريين الإنجليز، من جمع كم هائل ومهم من الأخبار والمعلومات والبيانات، القيّمة، عن الوضعية:السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والقبلية، للمغرب، كما كانوا شهود عيان على الكثير من التفاصيل الدقيقة عن أوضاع هذه البلاد، وجغرافيتها، ومسالكها، وحياة قاطنيها، ومُثلهم

الأخلاقية، خلال طيلة الشهور والسنوات التي قضوها فيها؛ قصد التقصي والاستخبار عن جزء مهم واستراتيجي من القارة الإفريقية[1].

في المقابل، واجه هؤلاء المستكشفين والجوالين والعسكريين الإنجليز، أثناء تسللهم للمجال المذكور، أو أثناء إجراءهم لبحوثهم الميدانية فيه، صعوبات وعراقيل ومشقات، جمّة، حيث إن بعضهم تعرض للأسر، والإغارة، والسرقة، والموت، والجوع، والعطش، والتهديدات البشرية، وتباين الألسنة، واختلاف العادات، ومنهم أيضا، من واجه الحرارة المفرطة، والمرض، والأوبئة، وآلام الغربة، وعدم وضوح معالم الطريق. وكيفما كان الحال، ورغم الصعوبات، والمشاق، والعقبات، الطبيعية والسوسيو ثقافية، الكثيرة والمتنوعة، التي اعترضت هؤلاء الجوالين والمستكشفين والعسكريين الإنجليز، أثناء تسللهم للمجال المذكور، أو أثناء أبحاثهم وتحرياتهم الميدانية فيه، إلا أنهم تمكّنوا جميعهم من تقديم مادة معرفية أولية، عمّا شاهدوه، وسمعوه، وعاينوه، عن شؤون وأوضاع هذه البلاد الإفريقية المجهولة، وغير المعروفة لديهم، سكانا وقبائل وشيوخا، خاصة وأن هذا المجال يُعتبر من المجالات التي لم يتيسّر للرواد والمستكشفين الإنجليز الأوائل زيارتها، ومعرفة تفاصيل أحوالها وشؤونها عن قرب.

وتُعتبر رحلة المهندس والمستكشف الإنجليزي جيمس كريگ، من بين أهم الشواهد المصدرية التاريخية الإنجليزية التي أرّخت للمغرب والمغاربة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، خاصة لما لهذه المرحلة من أهمية قصوى، من الناحية التاريخية والاجتماعية والسياسية؛ حيث تميزت بتسارع الأحداث وتلاحق الوقائع، إضافة إلى ما كان لها من تأثير كبير في توجيه تاريخ المغرب المعاصر، وإحداث تحولات كان لها وقعا عميقا في بنياته العتيقة، سواء من الناحية السياسية، أو العسكرية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو الدينية، وحتى الثقافية، والفكرية. وهكذا، تضمّنت الرحلة السالفة الذكر، معلومات، ومعطيات، وإيماءات، نفيسة وكثيفة، عن: الأحوال الاجتماعية، والحياة اليومية، والعادات، والتقاليد، في مغرب القرن التاسع عشر الميلادي، وهي بيانات، تُعتبر بحق، نادرة، وثمينة، ومثيرة، وقلّما تلتفت إليها المصادر والكتابات المحلية التقليدية المكتوبة باللغة العربية، والمتميزة بالشح والابتسار على صعيد عناصرها الإخبارية؛ حيث نجدها لا تهتم إلا بما هو سياسي، وعسكري، وما ارتبط بالأسر، والسلالات الحاكمة، ومآثر الأمراء والسلاطين، أمّا ما تعلق بالمجتمع وعناصره المختلفة، فمن النادر ما نجدها تعطي إفادات مهمة حوله، إذ جعلته قطعة من التاريخ "المسكوت عنه"، حيث لا تقدّم إلا إشارات مقتضبة، وضحلة، ومبعثرة، وعابرة، ومتضاربة، يتواتر فيها الوضوح أحيانا، والغموض والإبهام أحيانا أخرى. وهكذا، لا تمكّن هذه البيانات الدارس مُطْلقا من إماطة اللثام عن معظم ثوابت المجتمع ومتغيراته، كما أنها لا تسمح له بأن يغوص في أعماق الواقع الاجتماعي للمجال المذكور بكيفية عميقة وأصيلة، وحتى إذا ما قدّمت هذه الكتابات المحلية الكلاسيكية بيانات ومعلومات حول المجتمع وسواد الشعب، فإننا نجدها فقط تُقدّم إفادات قليلة، وتلميحات خجولة، وشذرات موجزة، متناثرة هنا وهناك، سقطت سهوا من أقلام مُؤَلِّفيها؛ لأن أصحابها اعتادوا التأريخ للخاصة من دون إيلاء العامة ما تستحق من حيث أدوارها وأهميتها في تطور مجريات الأحداث والوقائع التاريخية.

وممّا ينبغي لفت النظر إليه بهذا الشأن، هو أن المهندس والمكتشف الإنجليزي جيمس كريگ، درس، وبإسهاب، كل ما له علاقة مباشرة بالمجتمع المغربي، من أبسط الأشياء إلى أعمقها دلالةً، كما أنه أرّخ لمنسيي التاريخ ولمن لا تاريخ لهم، الشيء الذي جعل

من رحلته المذكورة، مجال "التاريخ اللاّمفكر فيه" أو مجال "التاريخ المنسي". وهكذا أفرز لنا هذا المصنف الرحلي الإنجليزي المتميز منتوجا علميا بالمعنى والكلمة، جدير بالاهتمام والقراءة، وما أحسب أننا أعطيناه حقه من البحث والدراسة؛ حيث ظل هذا التراث العلمي لحقبة طويلة، مغمورا، خامل الذكر، بعيدا عن كل إشارة؛ لأسباب مختلفة ومتعددة، منها: النظرة السلبية للإنتاج الكولونيالي، الذي يُوصف في الغالب الأعم، وإلى عهد قريب، بأنه تحصيل حاصل، لا يقدّم ولا يؤخّر، أو أداة للهيمنة والسيادة على الآخرين، أو لأنه مرتبط بالسلطة الاستعمارية، إضافة إلى صعوبة الوصول إلى هذه النوعية من المصادر النفيسة، والتي تبقى في المجمل حبيسة رفوف الخزانات والربائد الأجنبية.

إذن، ما هي الصور التي رسمها المهندس والمستكشف الإنجليزي جيمس كريگ عن المغرب والمغاربة؟ وإلى أي حد تمكّن من تشخيص الواقع الاجتماعي والاقتصادي للمجال المذكور، في فترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي؟

هذه الأسئلة، وما سِواها، هي التي سنحاول البحث عن أجوبة لها، في قادم سطور هذا العرض المتواضع.

1. التعريف ب المهندس والمستكشف الإنجليزي جيمس كريگ ورحلته المغربية

1.1. من هو جيمس كريگ؟

أول ما يجدر الانتباه إليه، بهذا الصدد، أن المصادر والشواهد التاريخية لا تمدنا إلا بالنزر اليسير، فيما يتصل بجوانب من بيوغرافية صاحب هذه الرحلة الاستكشافية وحياته، ومع ذلك، يمكن أن نستمد من تلك المعطيات القليلة والشحيحة، بعض التفاصيل المتعلقة بأنشطته وحياته، وهكذا فجيمس كريگ هو مهندس ومستكشف إنجليزي، جاب عدة مناطق مغربية، كان في خدمة السلطان المغربي محمد بن عبد الرحمن (1859م-1873م)، وقضى بعض الوقت في مدينة مراكش، كما أقام في مدينتيْ السويرة وآسفي، وتحديدا من شتاء سنة 1862م إلى سنة 1868م، وكان متخصصا في عدة علوم وفنون، من بينها علم الهندسة، وعلم الأرصاد الجوية، وله مجموعة من التآليف[2].

2.1. السياق التاريخي لرحلة المستكشف الإنجليزي جيمس كريگ

ألف المهندس والمستكشف الإنجليزي جيمس كريگ رحلته المغربية سنة 1870م، أي بعد 10 سنوات من هزيمة المغرب أمام إسبانيا سنة (1859م-1860م) في "وقعة تطوان" الشهيرة، المعروفة في الإسطوغرافيا الإسبانية، بـ "الحرب الإفريقية"، وهي فترة تاريخية، تميزت بكثرة الأحداث والوقائع السياسية والاجتماعية، وما يميز هذه الظرفية التاريخية، أكثر، هو تزايد واشتداد مظاهر التوتر والصراع في العلاقات المغربية الأوروبية بصفة عامة، والإسبانية على وجه الخصوص، وقد شهد المغرب خلال هذه المرحلة الحرجة من تاريخه، مجموعة من الضغوطات والتناقضات، مسّت مختلف الميادين والمجالات الاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والديبلوماسية.

ويمكن إجمال هذه الضغوطات[3]، المتنوعة المقاصد والأهداف، في عواقب معركة إيسلي سنة 1844م، ومعاهدة للامغنية سنة 1845م، وما ترتب عليها من إجحاف وتقزيم لحدود المغرب الشرقية والجنوبية، ثم هناك المعاهدة التجارية التي وقعها المغرب مع بريطانيا سنة 1856م، وما حملته من استغلال فاحش لخيرات المغرب، هذا بالإضافة إلى الحرب التي فرضتها إسبانيا على المغرب سنة 1859م-1860م، وما صاحبها من تعنت إسباني أثناء التوقيع على معاهدة الصلح في 26 أبريل 1860م؛ التي التزم فيها المغرب بدفع غرامة مالية باهظة بقيمة 100 مليون بسيطة،

كتعويض عن الخسائر التي زعمت إسبانيا أنها لحقت مناطق نفوذها بالمغرب، هذا بالإضافة إلى توقيع المغرب يوم 16 غشت 1863م، تحت تهديد الأسطول الفرنسي بقنبلة الموانئ والمدن المغربية، معاهدة تجارية عرفت في الأدبيات التاريخية المغربية بـ "وفق بيكلار"، والتي من خلالها رسخت فرنسا تواجدها في التراب المغربي.

3.1. أهداف رحلة المهندس والمستكشف الإنجليزي جيمس كريگ المغربية

نستطيع القول من خلال ما توافر لدينا من معلومات ومعطيات، إن رحلة جيمس كريگ الاستكشافية إلى المغرب، كان لها هدفين رئيسين ومتمايزين، وهما:

- **الهدف الأول:** (هدف استخباراتي/تجسسي)، غايته الرئيسة القيام بمسح شامل للمجال الجغرافي المغربي، من أجل سبر أغواره، وتجميع بيانات تهم بالأساس الميادين: الدينية والاجتماعية والاقتصادية، ناهيك عن بنيته وتضاريسه ومناخه ومجتمعه، وما ساعد الرحالة كثيرا، في مهمته الاستكشافية الاستخباراتية، درايته الكبيرة بالعوائد والعقلية المغربية، ناهيك عن وظيفته كمهندس لدى المخزن المغربي، وقد مكنته مهمته هذه المتمثلة في إنشاء مرصف بمدينة آسفي، بغاية معالجة الخطر الذي كان بهذا الميناء، بغية التخلص من رجوع أمواج البحر[4]، من التجول في كل المدن المغربية، بكل حرية وبدون أية عوائق، وانطلاقا من ذلك استجمع رحالتنا معلومات ومعطيات عديدة حول المجال والإنسان المغربي.
- **الهدف الثاني:** (محفز شخصي)، يتجسد في رغبة دفينة داخل الرحالة لاستكشاف المجهول وشغفه بارتياد غياهبه، ومن أجل كل هذا، تجشم رحالتنا الصعاب الجسام، وتحمل المشاق المضنية، وركب المخاطر المهولة، في سبيل تحقيق أهدافه اللامحدودة، المتمثلة في اكتشاف العوالم والأقطار الغريبة والمجهولة والمغلقة.

2. المغرب في مرآة رحلة المهندس والمستكشف الإنجليزي جيمس كريگ

تناول المهندس والمستكشف الإنجليزي جيمس كريگ جملة من القضايا، ذات البعد الاجتماعي، والاقتصادي، والجيولوجي، والإثني للمغرب، وهي تفاصيل، غلب عليها طابع التجسس والاستخبار، ومراكمة المعلومات، هي في المجمل، عبارة عن شتات من الأخبار، توحّدها رغبة استجلاء تاريخ المغرب وحضارته وامكاناته، وهكذا كان بإمكان هذه البيانات المتنوعة، التي استجمعها المستكشف الآنف الذكر، أن يطويها الزمن، وتحشر في غياهب النسيان، لولا أنه اختزنها في ذاكرته، ودوّنها في مؤلفه.

1.2. المغرب (الموقع والمظهر العام للبلاد)

يُشير المهندس والمستكشف الإنجليزي جيمس كريگ، أن الإمبراطورية المغربية كما يسميها تتمتع بموقع جغرافي جيد، على الزاوية الشمالية الغربية لإفريقيا، لا يفصلها عن أوروبا سوى مضيق جبل طارق، وتتكون من ثلاث مملكات، وهي: فاس، ومراكش، وسوس[5]. وهكذا يحد هذه الإمبراطورية شمالا (البحر الأبيض المتوسط)، ومن الشمال الشرقي (الجزائر)، ومن الجنوب الشرقي (الصحراء)، ومن الغرب (المحيط الأطلسي)، وتقع ما بين 28 درجة و36 درجة من خط العرض الشمالي وبين 4 درجات و14 درجة من خط الطول الغربي لخط زوال باريس، تبلغ مساحة المغرب تقريبا 5000 ميرياميترا مربعا، تمتد شواطئه على حوالي 400 كلم على البحر الأبيض المتوسط، وعلى 900 كلم على المحيط الأطلسي[6].

إلى جانب هذه المعطيات الجغرافية، يُخبرنا الرحالة السالف الذكر، أن مناخ المغرب هو مناخ معتدل وصحي، ويُضيف أن مناخ السواحل يتميز باعتدال

واستقرار ملحوظين[7]، أما سعة تذبذب مقياس الحرارة فلا تتجاوز مثلا في مدينة السويرة 35 درجة بمقياس فرنهيت، وكمية الأمطار بمعدل 21 بوصة، وبالداخل حيث لا يمكن لتأثير البحر أن يصل هناك المزيد من التيارات، الناتجة في جزء منها عن ثلوج الأطلس[8].

أما بالنسبة للشبكة المائية التي يزخر بها المغرب، فيذكر رحالتنا أن الأخير يتوفر على مجموعة من الأنهار والمجاري المائية، مثل: (نهر اللوكوس، ونهر سبو، ونهر أم الربيع، ونهر تانسيفت، ونهر ملوية، وواد درعة، وواد نون، وواد سوس)، وتسير هذه المجاري المائية وفق رحالتنا دائما من جبال الأطلس مباشرة في اتجاه الغرب لتصب في المحيط الأطلسي[9]، ويُضيف أن المغرب يتوفر على العديد من المياه، التي لها مزايا كبرى وعجيبة، ومن بينها المنابع الهيدروكبريتية لمولاي يعقوب، الواقعة بالقرب من مدينة فاس، حيث مياه هذه الأخيرة لها مفعول عجيب بالنسبة للأمراض الجلدية، ويُحدثنا رحالتنا أن سكان هذه المناطق يزعمون أن مياهها تعالج أمراض عديدة مثل داء الخنازير[10].

2.2. السكان وتركيبة المجتمع

يُخبرنا المهندس والمستكشف الإنجليزي جيمس كريگ، أن عدد سكان المغرب قد بلغ حسب بعض البيانات الأوروبية، في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، حوالي 14 مليون نسمة، ويُضيف أن هذا العدد الذي يبدو وفق رحالتنا مبالغ فيه لعدة اعتبارات، قد تراجع مع بداية النصف الثاني من القرن المذكور، حيث يذكر إنه وفق بعض المعطيات الدقيقة، لا يتجاوز عدد السكان في المغرب إذ ذاك، سوى أربعة ملايين نسمة فقط[11]، ويُشير أيضا أن المغرب يتكون سكانه من خمسة أعراق مختلفة ومتمايزة، وهي بالترتيب:

أ. الأمازيغ: يذكر المهندس والمستكشف جيمس كريگ أن الأمازيغ، هم السكان الأصليين للمغرب، ويُضيف أنه بعض طرد الأمازيغ من طرف العرب الفاتحين، التجأوا إلى الجبال، حيث جعلوا منها مقرا لسكناهم، وهم بالتالي أكثر أمانا وأقل اضطهادا من سكان السهول. على المستوى البدني فالأمازيغ، هم جميلو الخلقة، ومحاربون جيدون، وقناصون مهرة، وأقوياء وصبورون من الدرجة العليا، وهم نشيطون ومثابرون، وبارعون في الصناعة التقليدية أفضل من العرب، وهم أيضا فئة يصعب إخضاعها، لكن يمكن أن تكون أحسن الرعايا لفاتح سخي ومستنير، كما أن الأمازيغ هم أحسن البنائين في كل البلاد المغربية، وهذا التفوق ناتج أساسا عن تعودهم على بناء المنازل من الحجر[12].

ب. العرب: أما بالنسبة لجنس العرب، فيخبرنا رحالتنا إنهم أيضا عرق جميل على المستوى البدني، لكن طبعهم لا يعد بالكثير، هم متبجحون بشكل مفرط، ومتعصبون، وغيورون، وكثيرو الحركة، وغير قادرين على تحمل الرخاء، وغير مؤهلين في الفنون العملية، وهم أيضا حراثون ورعاة، يسكنون الخيام، وهم دائما في خلاف مع المخزن، إذ يشعرون أساسا بأنهم منجذبون بتقلبات التجارة، ويحبون وراء ذلك المال والنهب[13].

ج. الموريسكيون: يُبين المهندس والمستكشف جيمس كريگ، أن الموريسكيين عرق هجين، اختلطت فيه دماء الموريسكيين الإسبان، الذين ارتدوا من الأوروبيين والبربر واليهود والزنوج، ويذكر أن الإنسان الموريسكي هو أكثر موهبة وتحضرا وتمدنا في كل أنحاء المغرب، حيث يعيشون في المدن، ويوفرون أحسن الصناع التقليديين، ويحتكرون على الرغم من نقصهم العددي، مقارنة مع العرق الأول والثاني، كل المراكز الرسمية، كما يحتكرون أيضا جزءً كبيرا من التجارة[14].

د. الزنوج: بالنسبة لهذه الفئة يُحدثنا رحالتنا السالف الذكر بأنهم عبارة عن عبيد، تم جلبهم من وسط وغرب إفريقيا، أو الذين ينحدرون من استيرادات قديمة، ويُضيف بأن هؤلاء العبيد اعتنقوا بعد جلبهم للمغرب الديانة الإسلامية، وقد مكنهم إيمانهم واعتقادهم بأن يحظوا تبعا لذلك بكل حقوق الناس الأحرار، ويُخبرنا أيضا أنه في المغرب لا

يوجد حكم القيمة القائم على اللون، فهناك وفقه دائما العديد من الشخصيات في مناصب عليا، والسلطان المغربي -محمد بن عبد الرحمن- نفسه تجري في عروقه نسبة مهمة من الدم الزنجي، على حد تعبير الرحالة السابق الذكر، علاوة على ما تقدم يتلقى العبيد عموما في المغرب، معاملة حسنة من قِبل أسيادهم، وفي الغالب لا يشتكون كثيرا مثل الأحرار الذين لا يملكون سوى حريتهم، في الحالات النادرة جدا التي يعانون فيها من سوء المعاملة من قِبل مالكيهم، يكون من حق العبيد أن يُعرضوا للبيع بالمزاد، وقد وجدت داخل هذه الفئة الكثير من الذكاء والدماثة[15].

هـ. اليهود: يُشير المهندس والمستكشف جيمس كريگ، أن اليهود المغاربة هم شعب أكثر جهلا من أي مكان آخر، لكنهم هم أقل اضطهادا مقارنة بمجالات وبلدان أخرى، ويُضيف بأن اليهود المغاربة وبفضل موهبتهم التجارية، تمكنوا من استمالة السلطان المغربي محمد بن عبد الرحمن، وهم أكثر التجار نفوذا في المغرب[16]، وهم أيضا "**الوسطاء المفروضون تقريبا في كل الأعمال انطلاقا من العقود التي تبرّمها الأسواق مع الحكومة إلى أبسط وساطة مالية**"[17].

3.2. الأنشطة الاقتصادية

1.3.2. الإنتاج الفلاحي

يبدو من معلومات وبيانات المهندس والمستكشف الإنجليزي جيمس كريگ، أنه كان مهتما كثيرا بدراسة الإمكانات الفلاحية التي يتمتع بها المجال المغربي، وهكذا يذكر أن الفلاحة تُعتبر أثمن منجم للمغرب، ويُضيف لو أن المخزن المغربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كفّ عن القمع وما سوى ذلك، لجعل المغرب يحتلّ مكانة من بين خزانات أوروبا للحبوب، كيف لا؟ ومنتجات البلد والمناخ المتنوع جدا الملائم لها يجعلها تزدهر جنبا إلى جنب، ويُبين أيضا أن المغرب يتوفر على كل أنواع التربة، وسهول وأودية، وأراضي طينية وأراضي رملية خفيفة، والأمطار معتدلة في فترة الزرع، والأنهار مزودة بوفرة بالمياه وعلى طول السنة، تجعل عملية السقي سهلة، ويتمتع المغرب بشمس شديدة، تنضج المحاصيل بسرعة فائقة[18].

في نفس الإطار ، يُحدثنا رحالتنا أن السهول في المغرب التي وصفها بالشاسعة توفر له محاصيل مهمة، تنتج من 30 إلى 60 مرة من البذور، لا يؤمن فقط كل حاجات الساكنة، وإنما بإمكانه أن يصدر كميات وافرة، وحسب محاضر عائدات الجمارك بلغت الصادرات سنة 1861م 27000 طنا، وبعدها في سنة 1862م بلغت 30000 طنا، تبقى هذه الأرقام وفق رحالتنا دائما صادمة حين ننظر إلى نسبة الأراضي الصالحة للزراعة والمزروعة نجدها قليلة جدا، كما أن هذه الأراضي تستغل بطريقة بدائية جدا، وتعتمد المحاصيل على الأمطار الأولى، التي تسقط عادة في شهر أكتوبر، التي تلين التربة المتصلبة من شدة حرارة فصل الصيف وتسهل عملية الحرث[19].

وحسب بيانات المهندس والمستكشف الآنف الذكر، فإن عملية الحرث في المغرب، تبدأ في منتصف شهر نونبر، إذ تُلقى البذور على التربة ويتم غرسها بعمق ثلاث بوصات على الأكثر بواسطة محراث بسيط، يتألف من فرع مقوس، غالبا ما يجر هذه الأداة ثوران مقرونان، أو زوج غير متجانس، يتكون من جمل وبقرة، أو من حصان وحمار، أو من بغل وامرأة! وإذا سقطت الأمطار على فترات متباعدة، ليس للفلاح ما يفعله سوى متابعة نمو المحاصيل، وهي مهمة يتقنها المغربي بامتياز، حين يصل موسم الحصاد، يحصد الفلاح محصوله تاركا كثيرا من التبن ليحرقه فيما بعد، ويُدرس الزرع بواسطة ثيران وينسف الحب ويغربله في الهواء الطلق، هذه هي الفلاحة في المغرب، على حد تعبير المهندس والمستكشف الإنجليزي جيمس كريگ[20].

2.3.2. النشاط التجاري

تحتوي رحلة جيمس كريگ الاستكشافية، على معلومات عديدة وكثيفة، حول موضوع التجارة في المغرب،

وبالضبط في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وهكذا يخبرنا صاحب الرحلة أن التجارة في المغرب تتم تقريبا وبشكل حصري على موانئه الأطلسية، سبعة منها مفتوحة وهي: طنجة، والدار البيضاء، ومازاگان، وآسفي، والسويرة على المحيط الأطلسي، والعرائش، والرباط على مصبي نهري اللوكوس وبورگراك، أما أگادير (ميناء سوس)، فقد عرف بأنه كان الميناء الأول بالمملكة، لكن تم إغلاقه من قِبل السلطان محمد بن عبد الله (1757م-1790م)، حين أسس مدينة السويرة سنة 1760م، إذ كان يخشى من أن يصبح الأمازيغ أغنياء وأقوياء بما يكفي، ويقيمون علاقات تجارية مباشرة مع الأوروبيين، وفك الارتباط بهم[21].

وهكذا، يُشير رحالتنا بأن ميناء أگادير هو الأقرب إلى تنبكتُ التي يسلكها التجار المغاربة، ويقع علاوة على ذلك، بمنطقة غنية بالنحاس وبالرصاص المحتوي على الفضة، وبالحديد والنيكل والكوبالت والمعدن الخام للكحل، هذا الميناء فيما سبق كان يصدر بشكل مباشر كميات كبيرة من: جلود الماعز، وزيت الزيتون، واللوز، والصمغ، والشمع، كل السلع التي أصبح من اللازم أن تمر عبر ميناء السويرة الجديد، وبسبب هذا الظرف الأخير، بالإضافة إلى قربها من العاصمة أصبحت السويرة مؤهلة لأن تصبح الميناء الأكثر أهمية في المملكة المغربية، إذ يجمع تجارة سوس وإفريقيا الوسطى وتجارة مراكش وقبائل الأطلس[22].

بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه أعلاه، يُخبرنا رحالتنا المذكور أن التجارة الخارجية للمغرب، وتحديدا في سنوات 1861م و1862م و1863م، حققت حوالي 37000000 فرنكا من المداخيل، تمثل ثلث هذا المبلغ منتوجات المصانع الأوروبية والثلثين الباقيين من الصادرات، ويُضيف أنه منذ سنة 1863م عرفت التجارة المغربية تراجعا ملحوظا لسببين اثنين، وهما: نقص العديد من المحاصيل، ثم بسبب الإكراهات المتنامية للمخزن المغربي[23].

وحسب نفس المؤلف، فإن المواد الأساسية المغربية الموجهة للتصدير، هي: الحبوب وزيت الزيتون والصوف واللوز والجلود، ويتوقف نصف البضائع المستوردة على سلع قادمة من مدينة مانشيستر الإنجليزية، حيث يأتي الشاي والسكر والحديد، ويُضيف بأن المنتوجات المغربية المتميزة تكمن في أثواب جميلة وناعمة، مصنوعة من الصوف والحرير، ومخاطة باليد، ومنسوجة بفاس، وتطريزات على قطائف وجلود، وزرابي رباطية لا تفنى تقريبا، والجلد المغربي المشهور، يعوض مع ذلك إلى حد ما في كل أوروبا بالمنتوجات الدباغية المنتجة في مارسيليا، وفخار متنوعة بأشكال تقليدية جميلة، ومصبوغة بذوق رفيع، وملح البارود يتم قلعه بوسائل بدائية من بقايا ترسبات مدينة مراكش[24].

3.3.2. المعادن

يُستشف من معلومات المهندس والمستكشف جيمس كريگ، أنه كان مهتما بشكل كبير بموضوع المعادن في المجال المغربي، حيث أورد معطيات كثيرة حول الموضوع، ومن بين الإشارات التي ذكرها قوله إن المغرب يتوفر على ثروة معدنية كبيرة، وهكذا يُخبرنا أن منطقة سوس على سبيل المثال لا الحصر، يوجد فيها النيكل والكوبالت، كما يوجد فيها النحاس والفضة بوفرة كبيرة، بيد أن أهم ثروة معدنية يتوفر عليها المغرب تكمن في الذهب الموجود في الأطلس[25].

خاتمة:

يبدو من حصاد ما سلف، أن رحلة المهندس والمستكشف الإنجليزي جيمس كريگ، نفيسة ونادرة، نظرا لما تزخر به من معطيات ومعلومات قيّمة في غاية من الأهمية، من شأنها إذا ما استغلت بالكيفية المثلى أن تساعدنا لا محالة على ملأ الفراغ المعرفي، الذي تشكو منه الكتابات التاريخية التقليدية، المتميزة بالشح والابتسار على صعيد عناصرها الإخبارية. وعليه، فالعودة إلى مثل هذه الكتابات الأجنبية، رغم نظرتها الاستعلائية، وأحكامها المسبقة، وخطابها الذي يشرعن للغزو والهيمنة، أضحت

اليوم ضرورة ملحة يفرضها البحث التاريخي المعاصر، من أجل الاستفادة منها، خاصة في مقاربة مواضيع وقضايا جديدة تهم أساسا: التاريخ الذهني، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والديني، صحيح أن هذه الكتابات لن تمكننا أبدا من رسم صورة شاملة وكاملة وواضحة، حول تاريخ المغرب وحضارته، بيد أنها على الأقل بإمكانها أن تستكمل لنا بعض التصورات، وتسد بعض الفجوات، التي تعاني منها المصادر المحلية المغربية.

قائمة المراجع والمقالات:

أولا: المراجع

- بلحداد، نور الدين: **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية 1873-1894م**، تقديم مصطفى الكثيري، (ط2؛ الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2016).

- بوشعراء، مصطفى: الاستيطان والحماية بالمغرب 1280-1311/1863-1894، (4 ج؛ الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1989).

ثانيا: المقالات

- جاهل، عادل: "البحث الكولونيالي الإسباني حول مجتمع إفريقيا (الصحراء الأطلنتية نموذجا): محاولة في التعريف والتركيب"، **مجلة جيل العلوم الانسانية والاجتماعية**، (مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة، تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي، طرابلس، لبنان، العدد 51، مارس 2019).

- كريگ، جيمس: "لمحة عن المغرب"، دراسة مترجمة عن الفرنسية، ضمن كتاب: **المغرب بعيون أوروبية ما بين 1862م-1868م**، ترجمة وتقديم بوشعيب الساوري، (ط1؛ الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2018).

الهوامش:

[1]- عادل جاهل: "البحث الكولونيالي الإسباني حول مجتمع إفريقيا (الصحراء الأطلنتية نموذجا): محاولة في التعريف والتركيب"، مجلة جيل العلوم الانسانية والاجتماعية، (مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة، تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي، طرابلس، لبنان، العدد 51، مارس 2019)، ص67.

[2]- مصطفى بوشعراء: الاستيطان والحماية بالمغرب 1280-1311/1863-1894، (4 ج؛ الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1989، ج4)، ص1509.

[3]- نور الدين بلحداد: السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية 1873-1894م، تقديم مصطفى الكثيري، (ط2؛ الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2016)، صص12-13.

[4]- جيمس كريگ: "لمحة عن المغرب"، دراسة مترجمة عن الفرنسية، ضمن كتاب: المغرب بعيون أوروبية ما بين 1862م-1868م، ترجمة وتقديم بوشعيب الساوري، (ط1؛ الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2018)، صص145-146.

[5]- المرجع نفسه، ص118.

[6]- المرجع نفسه، صص.119-120.

[7]- المرجع نفسه، ص117.

[8]- المرجع نفسه، ص121.

[9]- المرجع نفسه، ص120.

[10]- المرجع نفسه، ص126.

[11]- المرجع نفسه، ص143.

[12]-المرجع نفسه، ص144.

[13]- المرجع نفسه ونفس الصفحة.

[14]- المرجع نفسه ونفس الصفحة.

[15]- المرجع نفسه، ص145.

[16]- المرجع نفسه ونفس الصفحة.

[17]- المرجع نفسه ونفس الصفحة.

[18]- المرجع نفسه، صص126-127.

[19]- المرجع نفسه، ص127.

[20]- المرجع نفسه، صص127-128.

[21]- المرجع نفسه، ص130.

[22]- المرجع نفسه، ص131.

[23]- المرجع نفسه، ص134.

[24]- المرجع نفسه ونفس الصفحة.

[25]- المرجع نفسه، صص125-126.